



﴿فَاءَ كُلِّ مَنْ زُوِّجَ لِلْأَخْرِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَجَسَّدُ مَا فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ وَرُكْنٍ وَقَدْ وَجَدْنَا فِي تَرَاثِنَا الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ نَمَائِجَ رَائِعَةً لِهَذَا الْوَفَاءِ، وَخَاصَّةً مِنْ قَبْلِ الْمَرَأَةِ.﴾

فَعِنْدَمَا مَاتَ الْأَخْفَبُ بْنُ قَيْسٍ بِالْكُوفَةِ عَامَ 76 هـ، وَهُوَ سَيِّدُ تَمِيمٍ، وَكَانَ مَعْرُوفًا بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَحَسَنِ الْبَيَانِ، وَكَانَتْ حَيَاتُهُ مَمْلُوءَةً بِجَلَالِ الْأَعْمَالِ، وَقَفَّتْ زَوْجَتُهُ وَابْنَةُ عَمِّهِ عَلَى قَبْرِهِ، وَرَوَّيْتُهُ قَائِلَةً: "لَهُ ذِكْرٌ مِنْ مُجْنٍ فِي جَنِّ، وَمُدْرَجٌ فِي كَفَرٍ، فَسَأَلَ الَّذِي فَجَعَلَنَا بَمَوْتِكَ وَابْتِلَانًا بِفَقْدِكَ أَنْ يَجْعَلَ لِي الْخَيْرَ سَيِّبًا، وَدَلِيلًا لِلرَّجْعَةِ إِلَيْكَ، وَأَنْ يُوَسِّعَ لِي يَوْمَ قَبْرِكَ، وَيَغْفِرَ لَكَ يَوْمَ حَشْرِكَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كَفَّتْ فِي الْمَحَافِلِ شَرِيفًا، وَعَلَى الْأَرَامِلِ عَطُوفًا، وَلَقَدْ كَفَّتْ فِي الْحَيِّ مَسِيوًا، وَإِلَى الْخَلِيفَةِ مَوْفَاةً. وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمِعِينَ وَارْتَابِكُمْ مُتَمِيعِينَ.

ثم أقبلت على الناس فقالت:

إلا إن أولياء الله في بلاده شهود عبادته، وإني لقائلة حقا، ومثنية صدقا، وهو أهل لحسن الثناء، وطيب البقاء؛ أما والذي كنت من أجله في عهده، ومن الحياء إلى مده، ومن الأثار إلى نهاية، الذي رفع عملك، لما قضى أجلك، لقد عشت حميدا مودودا، ومت سعيدا مقفودا، ثم انصرفت وهي تقول:

لله درك يا أبا بجر ماذا تغيب منك في القبر  
لله درك أي حشو ثري أصبحت من عرف ومن نكر  
إن كان دهر فيك جد لنا حدثاته ووهت قوى الصبر  
فلنكم يد أسديتها ويد كانت ترد جرائر الدهر  
فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة قط أصدق ولا أبليغ منه.

﴿حببت أم زرع﴾

ولقد اشتهر في السنة النبوية حديث "أم زرع"، وهو حديث طويل روت السيدة عائشة رضي الله عنها ويقدم صورة بلاغية لما كان عليه النساء في الجاهلية، من الوفاء للزوج، أو عدم الوفاء له، وأحوال الرجال معهن من حيث الكرم والالطف ورعاية الحقوق والمعاملة الطيبة تارة، ومن حيث القسوة والعتف وغلظ الطابع وسوء العشرة تارة أخرى. ومن يقرأ هذا الحديث، لا بد أن يستعين بمعاجم اللغة العربية لكي يفهم معانيه، وما يتضمنه من ألفاظ وأوصاف اللغوية الريفية التي وصل إليه عرب الجاهلية رجالا ونساء على حد سواء، وسبب هذا الحديث - كما ذكره علماء السنة، ومنهم الإمام السنائي، الذي اشترك في روايته مع الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما: قالت عائشة: (فخرت بمال أبي في الجاهلية، وكان ألف ألف أوقية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أسكني يا عائشة، فإني كنت لك كأي زرع أم زرع)

وقيل: سبب الحديث أن عائشة وفاطمة جرى بينهما كلام، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ما أنت بسنتها يا حبيزة عن ابنتي. إن مثلني ومثلك كأي زرع أم زرع أم زرع فقالت: يا رسول الله حدثنا عنكما، فقال: كانت قرية فيها إحدى عشرة امرأة، وكان الرجال خلوافا، فقلن: تعالين نتذاكر أزواجنا بما فيهن ولا تكذبين... وقيل: إن هذه القرية كانت باليمن، وقيل: إنهن كن بمكة، وقيل: إنهن كن في الجاهلية.)

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاهَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَحْبَابِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا.

قَالَتْ الْأُولَى: زَوْجِي لِحْمٍ جَمَلٌ عَثٌ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ، لَا سَهْلَ فَرْتَقِي، وَلَا سَهْلَ فَيَنْتَقِلُ.  
قَالَتْ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا آيْتٌ خَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَفْرَهُ، إِنْ أَذْكَرَهُ أَذْكَرَ عَجْرَهُ وَبَجْرَهُ.  
قَالَتْ الثَّلَاثَةُ: زَوْجِي الْمَشْتَقِيُّ، إِنْ أَنْطَقَ أَطْلَقَ، وَإِنْ أَسْكَتَ أَعْلَقَ.  
قَالَتْ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلِيلُ نَهَامَةٍ، لَا حَرْ، وَلَا فَرْ، وَلَا مَخَافَةَ، وَلَا سَامَةَ.  
قَالَتْ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فُهَدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عِنْدَ.  
قَالَتْ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَبَ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَى، وَإِنْ أَضْطَجَعَ اشْتَفَى، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ.  
قَالَتْ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَابُهُ - أَوْ عِيَابُهُ - طَافَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَكَ، أَوْ فَلَكَ، أَوْ جَمَعَ كَلًّا لِكِ.  
قَالَتْ الثَّمَانِيَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مِنْ أَرْبَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْبٍ.  
قَالَتْ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنَ النَّادِ.  
قَالَتْ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتٌ الْمَبَارِكِ قَلِيلَاتٌ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمَزْهَرِ أَيْقَنَ أَنَّهُنَّ هَوْلُكِ.

قَالَتْ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، فَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسٌ مِنْ حَلِيِّ أَدْنِي، وَمِلْءٌ مِنْ شَجْمِ عَضْدِي، وَيَجْحِي فَيَجْحِي إِلَى نَفْسِي، وَيَجْدِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةِ بَشَقٍ، فَيَجْعَلُنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيبٍ وَدَانِسٍ وَمَتْنٍ، فَعِنْدَهُ أَقْوَلُ وَلَا أَيْحُ، وَأَرْقَدُ فَاتَّصِحُّ، وَأَسْرَبُ فَاتَّقِنِحُّ، أَمْ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أَبِي زَرْعٍ؟ عَكْمُهَا رِدَاحٌ، وَيَتَعَا فَسَاحٌ، إِنْ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهَا كَمَلٌ شَيْطَانِي، وَبَشَعُهَا دِرَاعُ الْجَفْرَةِ، بَشَقُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بَشَقُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أَمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَاتِهَا، وَعَظْمُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لَا تَبْتَ حَدِيثَنَا تَيْبِيًا، وَلَا تَنْتَفِ مِيرَتَنَا تَنْفِيًا، وَلَا تَمَلَا بَيْتَنَا تَعْيِيًا.

﴿قالت﴾

خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَطْوَابُ تُشْخَضُ، فَلَقِيَّ امْرَأَةٌ مَعَهَا وَلَدَانٌ لَهَا كَالْفَهْلَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهِمَا بِرَمَاتَيْنِ، فَلَقِيتُ وَتَكَلَّمْتُ، وَتَكَلَّمْتُ، فَتَكَلَّمْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيئًا، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا، وَقَالَ: كَلِمِي أُمُّ زَرْعٍ، وَمِيرِي أَهْلُكَ. قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آتِيَةِ أَبِي زَرْعٍ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (( كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَمْ زَرْعٍ. ))

﴿مجالس النساء﴾

وهذا الحديث البلاغي يعبر عن مجلس من مجالس التيممة، التي كان النساء يعقدنها في الجاهلية، وخاصة نساء الطبقة المترفة، اللاتي يعشن فرغا لا يستطعن مالا إلا بهذه المجالس، فأمرأة العزيز فعلت ما فعلت مع نبي الله يوسف، من محاولات الغواية والكيد له بالسجن بضع سنين، لما كانت تعنيه من فراغ، والنسوة اللاتي أشعن خبرها كن يعشن فرغا أيضا، ولذلك راودن يوسف عن نفسه، عندما عدت عن مجلسها، وأخرجت يوسف عليهن ليرين ما هو عليه من الجمال، قال الله تعالى- عن هذا الموقف: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد ضغفنا لها إنا لترأها في ضلال ميين \* فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سيكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأته كنهنه وقطنن أيديهن \* ولئن حاش الله ما هذا بشرًا إن هذا إلا الملك كريم﴾ يوسف: 30-31.

وهكذا كانت تعدد مجالس النساء في الجاهلية ويعومر ما قبل الإسلام، ومنها هذا المجلس الذي شاركت فيه إحدى عشرة امرأة، وروته السيدة عائشة، وهي تتحدث مع النبي - صلى الله عليه وسلم - والحديث يبين الأساليب المختلفة للرجال في سياسة النساء ومعاشرتهن، ولا شك أن الإسلام يدعو الرجل إلى مياسطة زوجته وسامرتها ولين الجانب لها، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفعل ذلك مع زوجاته، وكان يسابق السيدة عائشة ونسائبع، فتغلب مرة ويغلبها أخرى، ويقول لها: هذه بنتك، وهو - صلى الله عليه وسلم - القائل: (كل شيء يابو به الرجل يابل إلا تأديه فرسه وروبه عن قوسه وملابته أهل). وقيل لرجل من الأعراب كان يجمع الفرائض: كيف تقدر على جمعهن؟ قال: قال لنا شاب يصيرهن علينا، ثم كان لنا مال يصيرهن لنا، ثم بقي لنا خلق حسن، فنحن نتعاشر به ونتعاشل.

﴿قالت﴾

وإذا وفقنا عند كل امرأة ممن تحدثن في حديث "أم زرع" لترى كيف تصف زوجها، نجد الأولى غير راضية عن زوجها لسوء خلقه وغلظة طبعه، فهي تشبهه بلحم الجمل العث الذي تعافه النفس، وتشبه سوء خلقه بالجلبل الورع، ولينه كان مع غنائه متحاشيا سهل المرتقي، بل هو على رأس جبل صعب المظلم، ولذلك فهي تفقد الأمل في زوجها لعيوبه الظاهرة والباطنة وعشرته لها، فهي شديد البخل سيء الخلق ميوس منه. أما المرأة الثانية: فلا يختلف زوجها عن زوج الأولي، فتقول: زوجي لا آيت خير، إني أخاف أن لا أدري، أي أنها - لسوء معشره وكثرة مثالبه - تخاف أن تطلق في حديثها عنه وعن صفاته القبيحة ولا تترك من خبره شيئا، وهي تكنتني بالإشارة إلى معاييه، فتقول: إن ذكره أذكر عجره وبجره، والعجر هو تعقد العروق والعصب في الجسد، والعجر كالعرج إلا أنه مختص بالبطن، وهي بذلك أرادت ذكر عيوبه الظاهرة والباطنة، وأن زوجها كثير المعايب معقد النفس عن الكرم.

وأما المرأة الثالثة: فزوجها في نظرها "عشيق"، وهو المفرد الطول، فله منظر بلا مخبر، وهو سيء الخلق، ولا تستطعن أن تذكر عنه أكثر من ذلك فتقول "إن أنطق أطلق وإن أسكت أعلق"، فهي إن ذكرت عيوبه وبلغه ذلك لطفها، وإن سكنت عنها فهي عنده معقلة لا ذات زوج ولا مطلقه، وهي مع ذلك متعلقة به وتوجه مع سوء خلقه.

﴿ولكن الأمر يختلف مع﴾

المرأة الرابعة: التي أخذت تمتدح خصال زوجها الحميدة وجميل عشرته لها، فهي تصفه كليل نهامة، وهنامة بلاد حارة في معظم السنة، وليس فيها رياح باردة، فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كانوا فيه من أذى حرارتها، فقد وصفت زوجها بجسيم العشرة واعتدال الحال، وسلامة الباطن، فلا أذى عنده ولا مكروه، وهي تلذ العيش معه كلذة أهل نهامة بليلهم المعتدل.

وأما المرأة الخامسة: فقد امتدحت هي أيضا خصال زوجها الحميدة وعبرت عن مساعدته معه، فقالت: "زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد"، فقد شبهت بالفهد عند دخوله البيت، من حيث الحياء وقلة الشره وكثرة النوم والوثوب، وإذا خرج من البيت كان أسدا بين الناس، نهابة العامة، ويتغلب على عدوه، وهو شديد الكرم، كثير التسامح، لا يتفقده ما ذهب من ماله ولا يسأل عنه.

﴿ثم ذم الأزواج﴾

ويعد أن تقلب الحال من الدم إلى المدح، عاد المجلس إلى ذم الأزواج مرة أخرى مع المرأة السادسة والسابعة، فكل منهما تعاني سيء الخصال من زوجها معها، فالسابعة: تعاني زوجا لا يهتم بها ولا يراعي شعورها كامرأة، فتقول: "زوجي إذا أكل لف" أي أكثر من الطعام لما لديه من نهم وشراهة للاكل، "وإن شرب اشتف" أي لا يبتغي على شيء مما يشرب، "وإن اضطجع التفت" أي يعرض عن أهله عند النوم ويلتفت بكسائه وحده، "ولا يولج الكف ليعلم البث" أي أنه لا يمس زوجته ولا يلاطفها ولا يسامرها، ويشجع حاجتها إلى الرجل، ولذلك فهي حزينة لذلك، وتشكو بنها وزحمتها من رجل لا يفهم طبيعة المرأة. وأما المرأة الثامنة: فإنها تعيش مع زوج غليظ الطابع، فتجتمع فيه كل عيوب الرجال، فهو أحمق، ثقیل الصدر، عاجز عن النساء، وكل داء تترقى في الناس فهو فيه "كل داء له داء"، ومع ذلك فهو ضروب للنساء، وإذا ضرب إما أن يشج الرأس أو يكسر العظم، أو يجمع بين الشج والأكسر، "شجك أو فلك أو جمع كلا لك".

﴿طبايع المحبة للنساء﴾

وننتقل مع المرأة الثامنة والتاسعة والعاشره والحادية عشرة لترى صورة من طبايع الرجال وأخلاقهم المحبة إلى النساء، فكل منهما تقدم أوصافا لزوج كريم المعشر، حسن الخلق، يحترم في المرأة أنوثتها، ويولي رغباتها، فالمرأة الثامنة تقول: "زوجي المسس من أرنب والريح ريح زرنب" دلالة على رفق مع المرأة وطيب ومعاملة لها، فهو كريم الأخلاق، طيب الرائحة.

وتقول التاسعة: "زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد"، فهي تصف بيته بالعلو، وهو من بيوت الأشراف التي يضربونها في المواضع المرتفعة، وهو رجل شجاع كريم، يكثر رماده من كثرة النار التي يوقدها لأكرام الضيوف، وبينه وسط الناس ليسهل لقائه، فهو لا يحتجب عن أحد.

وتقول العاشرة: تصف زوجها مالكا: "زوجي مالك، وما مالك؟ مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح، وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهم هوالك" إن زوجها رجل كريم، يحسن استقبال ضيوفه ويكرم وفادتهم، له إبل كثيرة لا تخرج إلى المرعى إلا قليلا استعدادا لتحرهن للضيوف، وإذا سمعن صوت العود والزمزام الذي يستقبل به ضيوفه أيقن أنها هوالك، وأنها مستدبح للضيوف.

﴿وفاء بعد فراغ﴾

وتصل إلى المرأة الحادية عشرة: وهي أم زرع التي سمي الحديث باسمها، لترى وفاء المرأة لزوجها الأول في أعلى صورته، فقد أطلت في وصف زوجها وأمه وولده وابنته وجارته، على الرغم من أنه قد طلقها وتزوج غيرها، إلا أنها وقد تزوجت غيره من الرجال- لم تنس حسن معشره وإكرامه لها ودماثة خلقه، وأخذت تعددها للنساء.

تقول: "زوجي أبو زرع، فما أبو زرع؟ أناس من حلي أدني، وملا من شحم عضدي، ويحجي فيحجث إلي نفسي"، فقد أنقل أدنيا بأقراط الذهب والحلي واللؤلؤ، وكثرت نعمه عليها حتى سمن جسمها، وعظمتها فغظمت إليها نفسها، ثم تقول - مبنية التحول الذي حدث لها من أبي زرع الذي تغلقها من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى: - "وجديني في أهل غنمة بشق، فنجعلني في أهل صهيل وأطيط ودانس ومتن، فعنده أقول فلا أقيح، وأرقد فأصيح، وأشرب فأتمصح، فقد وجدتها في أهل غنم يعيشون حياة شاقة، فنقلها إلى أهل خيل وإبل وطعام شهي، وفي بيته كانت تقول تقول فبرد لها قولاً، وكانت تنام فلا يوقظها أحد، إلا عنده ما يكفيها مؤنة بيتها وأهلها، وكانت تشرب على مهل حتى ترتوي.

ثم تصف أم أبي زرع بأنها كثيرة الآلات والأثاث والمتاع، واسعة المال، كبيرة البيت، وتصف ابن زوجها من امرأة أخرى بأنه خفيف الوطأة عليها، فإذا دخل بيتها وقت القبوله مثلا لا يضطجع إلا قدرا يسيرا، وأنه لا يحتاج طعاما من عندها، ولو طعم لاكتفي باليسير الذي يسد الرق من المأكول والمشروب، فهو طريف لطيف.

وتصف بنت أبي زرع فتقول "بنت أبي زرع، فما بنت أبي زرع؟ وعظمت جارتها" فهي باردة بأبويها، مطيعة لهما، كاملة الجسد والشخصية، وأنها تغضب جارتها لما ترى عليها من أثر النعمة والخير. وحتى جارية أبي زرع توفرت فيها صفات حميدة، فهي لا تنفسي سر بيته، وتحافظ على ماله، ولا تخونه في شيء.

ثم تتحدث أم زرع عن الانقلاب الذي حدث في حياتها مع أبي زرع عندما رأى امرأة ولودا لها طفلان كنهنيين بلعان تحت خصرها، فطلق أم زرع وعزمها رغبة في الولد، إذ كانت أم زرع عقيما، فتزوجت أم زرع رجلا غيره من الأثرياء الشرفاء، فأكرمها وأعطاها من كل الخيرات أصنافا وأزواجًا، ووسع عليها وعلى أهلها، ولكنها لم تنس زوجها الأول وما زالت تذكر فضله وكرمه وفاء له، فتقول: "فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آتية أبي زرع".

وينتهي الحديث بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد أعجبها صنيع أبي زرع مع أم زرع ":- كنت لك كأي زرع أم زرع، وفي رواية ":- لا أنه لطفها، ولاني لا أطلقك" وزاد السنائي قول عائشة: "يا رسول الله بل أنت خير من أبي زرع".

﴿واخيرا أختي المسلمة﴾

هل لك أن تكوني لزوجة كام زرع

لزوجة أبو زرع

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 11/03/2011

من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر

رابط الموقع : [www.mohammdfarag.com](http://www.mohammdfarag.com)